الفصل السادس
من أسرار حرف الانتهاء

معنى إلى وأسرار زيادتها

قال أبو القاسم الزجاجي: «(إلى) تكون لمنتهى غاية ، كقول القائل: إنَّما أنا إليك ، أي: أنت غايتي» [1].

وقال السيوطي: «(إلى) حرف جرٍّ ، له معانٍ ، أشهرها انتهاء الغاية ، زمانًا نحو ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ، أو مكانًا نحو ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ ، وغيرهما نحو: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، أي: مُنتهٍ إليك. ولم يذكر لها الأكثرون غير هذا المعنى» [2].

وقال المالقي: «واعلم أنَّ (إلى) وغيرها من حروف الجر التي تُذكر في هذا الكتاب في أبوابها لابد لها ممَّا تتعلق به ، أي ممَّا هو متضمّن لها ، ومستدعٍ لها لطلب الفائدة واستقامة الكلام» [3].

وهذا كلام طيب من المالقي لو لم يقف عند حدود التعلُّق الإعرابي، والبحث عن فعل أو اسم يتعدَّى بهذا الحرف أو ذاك ، دون البحث عمَّا استدعاه وطلبه من الأغراض ، وما أفاده من المعاني.

ولنأخذ ذلك من الأمثلة ما يشبه أنْ تكون فيه «إلى» مع مجرورها زيادة يمكن الاستغناء عنها ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٥).

فإنَّ الفعل «هُزِّي» تعدَّى إلى مفعوله بالباء ، وكان يمكن الاكتفاء به ، وأنْ يقول: «وهُزِّي بجِذْع النخلة تساقط» ، لكنَّ الله تعالى أرشد

---

(١) معاني الحروف للزجاجي ٦٥.
(٢) الإتقان ١/ ١٥٣.
(٣) رصف المباني ١٦٧ ــ ١٦٨.

مريم إلى أيسر الطرق التي تضمن تساقط الرطب بين يديها دون عناء كبير ، فهي لاتزال تعاني آثار الولادة ، وليس لها من الجهد ما تقوى به على تحريك الجِذْع يمينًا ويسارًا ، ممَّا يمكن أنْ يعرِّضها للترنُّح والسقوط ، إلى جانب ما يؤديه من سقوط الرطب بعيدًا عنها ، فجاء قوله «إليك» إرشادًا منه تعالى بأنْ تجعل انتهاء الهَزِّ إليها ، لتعتمد على الجِذْع وتستند إليه أثناء هَزِّه ، ولكي يتساقط الرطب قريبًا منها.

وكما «طلبت الجِذْع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة» [1] ، فهي كذلك تطلبه لتعتمد عليه في جلب طعامها رحمةً من الله بها ، ولم يُغْنِها الله تعالى عن ذلك بإسقاطه عليها ، ليُعلِّم عباده كيف يأخذون بالأسباب ، ولا يركنون إلى التواكل والاستسلام.

وهذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ (التوبة: ٣٨) ، لم يكتف القرآن بوصفهم بالتباطؤ فيقول: «تثاقلتم ، أو اثَّاقلتم» ، وهو يفهم أنَّهم تباطأوا عن النَّفرة في سبيل الله ، بل زاد «إلى الأرض» ، ليوحي بتسفُّل غايات القاعدين ، وتدني درجتهم، في حين تسمو غايات المجاهدين ، وترتفع درجاتهم عند ربهم ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٥) ، وعدل عن صيغة «تثاقلتم» الدالة على التباطؤ والإهمال ، إلى صيغة «اثَّاقلتم» ، وهي تدل على التباطؤ عن الشيء بعد الاستنهاض له [2] ، مع ما في

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٦.

(٢) انظر معجم الأفعال المتعدية بحرف ٢٨.

هذه الصيغة من الدلالة على صعوبة الحركة ومعاناة النهوض ، مقابلاً بزيادة الحروف والتضعيف. كل ذلك يدل على عدم مطاوعة النفس وتهاوي الإرادة ، وكأنَّه ينازع نفسه فلا يستطيع ، ويحاول النهوض فلا تسعفه قواه لتنتهي معاناته ومحاولاته إلى الأرض ، متمسكاً بها راكناً إليها.

فهل يفلح في التعبير عن سرِّ هذا الحرف ، وما أُضافه إلى تركيبه من خصائص ، أنْ يقال إنَّه ضُمِّن الفعل معنى الميل والإخلاد ، فعُدِّي بـ«إلى»؟ (١).

وهذا قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ (ص:٢٣ – ٢٤).

تأمَّل كيف جاءت زيادة ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ﴾ ، مُصوِّرة نَهَم الرجل ، وحُبَّه لجمع المال ، وعدم قناعته بما بين يديه حتى يضيف قليل غيره إلى الكثير عنده.

لقد كان يكفي داوود – عليه السلام – أنْ يقول: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك» ، والسؤال مضاف إلى مفعوله ، وهو هنا معناه: الطلب ، والمعنى: ظلمك بطلبه نعجتك. لكن هذا لا يكشف عن استنكار داوود وغضبه على رجل تسيل الأموال بين يديه ، ثم ينظر إلى القليل التافه في يد غيره ، لذا جاء ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ﴾ تأنيبًا وتقريعًا له على عدم قناعته

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٨٩.

بما أغناه الله من فضله. وإنْ شئت المعنى الحرفي فقل: بسؤال نعجتك منتهية إلى نعاجه.

***

إلى وحرف الاختصاص

ممَّا ذكره ابن هشام من معاني «إلى»: «مرادفة اللام ، نحو: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾» [1].

وقال ابن فارس: «وربما قامت (إلى) مقام اللام. قال الشمَّاخ:

فَالْحَقْ بِبَجْلَةَ نَاسِبْهُمْ وَكُنْ مَعَهُمْ حَتَّى يُعِيرُوكَ مَجْدًا غَيْرَ مَوْطُودِ
وَاتْرُكْ تُرَاثَ خُفَافٍ إِنَّهُمْ هَلَكُوا وَأَنْتَ حَيٌّ إِلَى رِعْلٍ وَمَطْرُودِ

يقول: اترك تراث خُفافٍ لرِعْلٍ ومَطرُود ، وخفافٌ ورعلٌ ومطرودٌ بنو أب واحد» [2].

والآية التي مثَّل بها ابن هشام لا تؤدِّي فيها لامُ الاختصاص ما يؤدِّيه حرف الغاية ، من معنى يكشف عنه سياق الآية ، وهو أنَّ بلقيس أسرعت إلى جمع كبار مستشاريها ، ومجلس الحكم في مملكتها ، فور تلقيها رسالة سليمان – عليه السلام – وطلبت منهم إبداء رأيهم فيما تردُّ به على هذه الرسالة ، وهو أمر جد خطير ، يتعلق بإعلان الحرب ، أو الدخول في طاعة سليمان ، وأظهرت للملأ احترامها لآرائهم ، وعزمها على العمل بمشورتهم. والحوار يوحي من بعيد بخلاف بين ما ترغب فيه بلقيس ، وما أشار به الملأ ، لذلك أعقبوه بتفويض الأمر إليها ، وكأنهم يقولون: هذا رأينا ، ولكن القرار الأخير راجع إليك. وهذا سياق

---

(١) المغني ١/ ٧٠.
(٢) الصاحبي ١٧٩ – ١٨٠.

الآية ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(النمل: ٢٩ – ٣٣).

فقولها ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾، واصفةً كتاب سليمان بهذه الصفة ، يوحي بميلها إلى الأخذ بما فيه ، وهو الإسلام والدخول في طاعته ، وإلا فما قيمة نعت الكتاب بهذه الصفة؟ ولِمَ لَمْ تكتفِ بطرح الأمر عليهم دون تدخُّل منها حتى تسمع رأيهم؟ ثم جاء قولها ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ ، إيماءً إلى أنَّها تطلب موافقتهم على أمر هي لن تقطع فيه حتى تجد منهم التأييد والعون ، وكأنَّها تستميلهم لرأيها ، وتعطفهم نحوها، إذ كان يكفي أنْ تقول ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ ، غير أنَّ الملأ أظهروا معارضتهم في مهارة وحسن تأدب ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾. ومفهوم هذه العبارة ، أو الدلالة الثانوية لها ، أنَّ من يملك هذه القوة وله ذلك البأس لا ينبغي أنْ يلقي يد السلم إلى أحد ، أو يقبل التهديد بالقوة.

وانظر كيف لم يقولوا: نحن أقوياء ، بل قالوا ﴿ أُولُو قُوَّةٍ ﴾ ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إليه أنَّ القوة في العدد والعتاد يصاحبها صلابة الرجل وعزم الأبطال ﴿ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، ثم جاء قولهم: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ حُسنَ أدبٍ منهم بتفويض الأمر إليها ، وإرجاع القرار والحكم النهائي إلى صاحبة الحكم ، على غرار قول الله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ١٠)؛ لأنَّ ما يختلف فيه الخلق يجب أنْ

يرجعوا فيه إلى ربهم ، ويردُّوا حكمه إليه ، وذلك يختلف في غايته ومرماه عن قوله تعالى ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾(الانفطار: ١٩) ، وقوله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٤٠) ، حيث تُشعر اللام باختصاصه تعالى وحده بالأمر والحكم ، ومثل ذلك لا يُستشار فيه ، ولا يُطلب فيه رأيٌ من أحد ، ولو أنَّ الأمر كذلك مع بلقيس لأسلموا لها الأمر دون إظهار معارضتهم المهذبة ، ولكان ردهم عليها هو: الأمر لك ، إذ إنَّ من يكون الأمر خالصًا له وحده لا ينازع فيه.

وما استشهد به ابن فارس من قول الشمَّاخ يردُّه ما فُسِّر به البيتان، على أنَّه أمر بترك تراث خفاف ، والتوجُّه إلى رِعْل ومطرود ، وهو ما يستوجب حرف الانتهاء. قال شارح الديوان: «اترك ما ورثت من عزة بني خفاف ، ولعلهم قوم الربيع ، فإنهم قد هلكوا ، وائت هذين الحيين ، عسى أنْ يأخذوا بيدك» [1].

وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: ٦) ، قد أدَّت فيه «إلى» دورًا لا تنهض به اللام في جعل الله غاية تتجه إليها القلوب ، وقبلة لا تنحرف عنها الأبدان ، ولا تركن إلى سواها من أرباب وآلهة ، وهو ما يؤكده تذييل الآية ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

ولو جاءت اللام بدلاً منها لكان المعنى طلب الثبات لطاعة الله ، والانقياد لأمره ، وهو ما لا يتلاءم مع خطاب المشركين الذين لم يتذوقوا معنى الطاعة ، ولم يأخذوا طريقهم بعدُ إلى الله تعالى ، فالاستقامة إذن

---

(١) ديوان الشماخ ١٢٣.

تتعدَّى باللام دالة على خلوص الأمر له والانقياد والخضوع له ، وتتعدَّى بـــ«على» دالة على الثبات على الشيء ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦) ، وتتعدَّى بـــ«إلى» دالة على استواء القصد والتوجُّه إلى الشيء. يقول ابن منظور: «والاستقامة: الاعتدال ، يقال: استقام له الأمر ، وقوله تعالى ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ، أي في التوجُّه إليه دون الآلهة» [1] ، وهو واضح في دلالة «إلى» على أصل معناها.

وفي معجم الأفعال المتعدية بحرف: «واستقام على طريقته: دام وثبت ، واستقام لوجهه: انقاد واستمرت طريقته ، واستقام له: ثبت على طاعته» [2].

وعليه جاء قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٧) مُعدَّى فيه «استقام» باللام ، إشعارًا باختصاصهم بالثبات على عهدهم معهم دون مَنْ نكثوا أيمانهم ، ونقضوا عهدهم ، وإذا كان فعل الاستقامة نضحت عليه معاني الحروف فاكتسب دلالات مختلفة بعدوى الحروف الواصلة له ، فلا ينبغي أنْ يقال في تعديته بـــ«إلى» خاصة: إنَّه مُضمَّن معنى فعل آخر ، كما جاء في الفتوحات الإلهية: «ضُمِّن معنى توجهوا ، فعُدِّي بـــ(إلى)» [3].

---

(١) لسان العرب ٦/ ٣٧٨٢.
(٢) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٣٠٦.
(٣) الفتوحات الإلهية ٤/ ٢٩.

لأنَّنا نقول: إنَّ التوجه والقصد إلى الله تعالى في قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ هو من دلالة حرف الانتهاء ، وليس من دلالة الفعل ذاته ، أصالةً أو تضميناً.

وممَّا قيل فيه بنيابة «إلى» عن اللام قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(هود: ٢٣).

يقول ابن منظور: «وأخبت إلى ربه ، أي: اطمأن إليه. ورُوي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين ، وقيل: هم المتواضعون ، وكذلك قال تعالى ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ، أي تواضعوا. وقال الفراء: أي تخشَّعوا لربهم ، قال: والعرب تجعل (إلى) في موضع اللام ، وفيه خبتة: أي تواضع. وأخبت لله: خشع ، وأخبت: تواضع ، وكلاهما من الخبت ، وفي التنزيل العزيز ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾» [1].

وبتتبُّع ما قاله ابن منظور نجد أنَّ «أخبت» حين يُعدَّى بـ«إلى» يدل على الاطمئنان ، وهو ممَّا يوصل بـ«إلى» ، وهذا يعني أنَّه وجد سكنه وراحته في الركون إليه ، وحين يُعدَّى باللام فإنَّه يدل على التواضع والخشوع ، وهو ممَّا يوصل باللام ، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج: ٥٤) ، على غرار قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن

(١) لسان العرب ٢/ ١٠٨٧.

تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾(الحديد: ١٦).

أمَّا لماذا عُدِّي الفعل بـــ«إلى» في «هود» ، وباللام في «الحج» ، فهو ما يجيب عنه السياق في الآيتين ، فآية «هود» جاءت بعد وعيد الله تعالى للصادِّين عن سبيل الله ، الذين يبغونها عوجًا ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود: ١٩) ، فلما نعى القرآن على هؤلاء الصادِّين جاء في مقابلتهم بامتداح المؤمنين الذين استقامت وجهتهم إلى الله تعالى ، فلم يستطع الصادون عن سبيل الله أنْ يحوِّلوهم عن وجهتهم واستواء قصدهم إلى ربهم ، أو يحولوا بينهم وبين الوصول إليه ، والإيواء إلى كنفه ، وذلك ما يعبِّر عنه حرف انتهاء الغاية.

أمَّا آية الحج فقد جاءت إثر الحديث عن الفتنة التي يلقي بها الشيطان في نفوس الضعفاء ، ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج: ٥٣).

وفي مقابل مرضى القلوب فريق آخر من الذين أوتوا العلم يرى ما أنزل الله هو الحق فتخشع له قلوبهم ، وتخضع لأمره ، وتنقاد لحكمه ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ ، واللام دالة فيه على إسلام قلوبهم لربهم واختصاصه بالخضوع له.

وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم} (إبراهيم: ٣٧). «وأصل الهوي: الهبوط بسرعة،

وفي كلام بعضهم: السرعة ، وكان حقه أنْ يُعدَّى باللام ، كما في قوله:

حَتَّى إِذَا مَا هَوَتْ كَفُّ الوَلِيدِ لَهَا طَارَتْ وَفِي يَدِهِ مِنْ رِيشِهَا بِتَكُ

وإنَّما عُدِّي بـــ«إلى» لتضمينه معنى الميل ، كما في قوله:

تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا مُؤْمِنُ الجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا» [1].

وبالبحث في كتب اللغة نجد للفعل «يَهْوِي» عدَّة معانٍ: «يُقَالُ: هَوَى يَهْوِي هَوِيًّا ، بِالْفَتْحِ ، إِذا هَبَطَ ، وهَوَى يَهْوِي هُوِيًّا ، بِالضَّمِّ ، إِذا صَعِدَ ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ ، وهَوَى يَهْوِي هُوِيًّا إِذا أَسرع فِي السَّيْرِ » [2].

وكل هذه المعاني صالحة لأنْ تُراد في الآية ، ويحقِّقها حرف الانتهاء ، وذلك أنَّه أسكن ذريته بوادٍ ، والوادي كما في المخصص «كل منفرج بين الجبال والتلال والآكام» [3] ، والمتجِّه إلى هذا الوادي إنَّما يهبط من الجبال والتلال التي تحيط بمكة إليه ، و«إلى» تشير معه إلي جعل بيت الله الحرام غايةً يقصد إليها المُلبُّون ، وتنتهي آمالهم عندها. ومعنى الصعود يمكن أنْ يراد هنا كذلك إلماحًا إلى شرف هذا المكان وسُمُوِّ المقصد ، و«إلى» تلمح إلى ارتفاع نفوس الحجيج وعلوها بعلو الهدف والغاية التي يُسعى إليها ، وقد عُدِّي هذا الفعل بـــ«إلى» دالاً على معنى الصعود في قول الشمَّاخ [4]:

عَلَى طَرِيقٍ كَظَهْرِ الأَيْمِ مُطَّرِدٍ يَهْوِي إِلَى قُنَّةٍ فِي مَنْهَلٍ عَالِي

والمعنى الثالث: وهو الإسراع ، ليس ببعيد في الآية؛ لأنَّ المُلبِّي

---

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٣٩.
(٢) لسان العرب ٨/ ٤٧٢٧.
(٣) المخصص ١٠/ ١٠١.
(٤) ديوان الشماخ ٤٦٠.

لدعوة إبراهيم تُحرِّكه دوافع الشوق ، ويستحثه شرف المقصد ليضرب أكباد الإبل ، ويركب أسرع ما هيأ الله تعالى له ، بغية الوصول إلى مقصده في أسرع وقت يمكنه.

فما الداعي إلى القول بأنَّ اللام هي أصلٌ في تعدِّي الفعل بها ، وكل هذه المعاني تؤدَّى بـــ«إلى» ، وينبئ فيها حرف الانتهاء عن القصد والغاية؟

وكم أدَّى القول بتناوب الحروف إلى فوضى تكاد تذهب معها خصائص الحروف ، وتتلاشى فيها دقائق الفروق ، وليس أدلَّ على ذلك ممَّا ذكره في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(الأنعام: ١٢). قال أبوحيان: «وقد تكون (إلى) هنا بمعني اللام ، أي: ليوم القيامة ، كقوله تعالى ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾» [1].

وقد مضى في فصل اللام أنَّ كثيرًا من النُّحاة والمفسرين جعلوا اللام في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾، وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ ﴾، بمعني «في» ، ثم عدنا الآن إلى القول بأنَّ «إلى» بمعنى اللام.

وإذا كنا قد رددنا القول بنيابة اللام عن «في» هناك فإنَّنا بمثله نقول هنا ، فليست «إلى» نائبة عن اللام ولا مرادفة لها ، والجمع يتعدَّى بـــ«في» إذا أريد الدلالة على زمان الجمع أو مكانه ، كقوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٨٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠)، ويتعدَّى باللام للدلالة على الغرض من الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ اليوم علَمٌ على الحساب، وجمعهم له هو جمعهم للحساب والجزاء فيه، ويتعدَّى بـ«إلى» للدلالة على انتهائهم إلى ما ينتظرهم من الحساب والجزاء.

ولكُلٍّ موضعه وسرٌّ إيثاره، وها هنا عُدِّي الفعل بـ«إلى» بعد قوله ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، إشارة إلى أنَّ تأخير الله العذاب، وعدم تعجيل العقوبة إلى هذا اليوم، هو من رحمة الله تعالى، حتى يتيح الفرصة لمراجعة النفس والعودة إلى الله ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ (الكهف: ٥٨).

ومن روائع النظم الكريم في استخدام الحروف – وكله رائع آخذٌ بمجامع القلوب – قوله تعالى في تعليم المسلمين آداب الحديث مع رسوله الكريم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ﴾ (الحجرات: ٤-٥).

فالفعل «خرج» أوصل في القرآن بحرف الوعاء، دلالةً على أنَّ المنافقين يتغلغلون في صفوف المسلمين لإثارة الفتنة بينهم، ويندسون فيهم لتشتيت جمعهم ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (التوبة: ٤٧)، وأوصل بحرف الاستعلاء، إيحاءً بالتعالي والظهور، كما جاء في وصف موكب قارون ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾(القصص: ٧٩) ، وأوصل باللام إشارة إلى اختصاص العباد بما أخرج الله لهم من طيبات الحياة وزينتها ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴿٣٢﴾ ﴾(الأعراف: ٣٢) ، وفيه حثٌ لهم على الانتفاع بما خلقه من أجلهم ، وأوصل بـــ«إلى» في الآية موضع الحديث لنكتة تغيَّاها النظم الحكيم ؛ وكشف عنها الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: فأي فائدة في قوله (إليهم)؟ قلتُ: فيه أنَّه لو خرج ، ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أنْ يصبروا إلى أنْ يعلموا أنَّ خروجه إليهم» (١).

وأضيف أنَّ «إلى» هنا أدلُّ على التأديب ، وضبط النفس وإحكامها من اللام ، إذ إنَّ حرف الانتهاء يلزمها بألا يبادئوه الحديث حتى ينتهي إليهم ، وذلك في ضمنه أنَّه خرج قاصدًا لهم ، بخلاف اللام التي تبيح لهم مبادأته بالحديث متى علموا أنَّه خارج من أجلهم ، ولو لم ينته إليهم، والأول أحكم في كمال الأدب وأبلغ من اللام. وأعتقد أنَّ الزمخشريَّ ألمح إلى ذلك في قوله: «لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم» ، فأفاد بأنَّ «إلى» نهضت بمعنى الحرفين ، وهو انتهاؤه إليهم وقصده لهم.

وهذا الفعل «أسرَّ» جاء في القرآن مُعدًّى بـــ«إلى» دالاً على إنهاء الرجل سرَّه إلى آخر ، كما في قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ (الممتحنة: ١) ، وقوله ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾(التحريم: ٣).

و«إلى» تشير معه إلى قصده بالسِّرِّ وانتهاء الخبر عنده بحيث لا

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٩.

يسري إلى غيره ، ولا ينفذ منه إلى سواه.

أمَّا قوله تعالى على لسان نوح: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ (نوح: ٩) ، فهي مثل اللام في قوله تعالى ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ ، حيث جاءت زيادة في الإنكار والتقريع لقومه في عدم استجابتهم لدعوته بعد أنْ دعاهم ، وأنذرهم أكثر من مرة ، وبأساليب مختلفة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾(نوح: ٥ – ٩).

فعُدِّي فعل الإعلان باللام وهو ممَّا يتعدَّى بنفسه ، ولم يقل: «أعلنتهم» ، ثم جاءت اللام في ﴿ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ ﴾ ، بما فيها من معنى الاختصاص دالةً على زيادة الإنكار عليهم ، وقد اختصهم بدعوته ، ووجَّه لهم الإنذار تلو الإنذار.

***

إلى وكلمة المصاحبة

ربما كانت «إلى» أكثر حروف الجر التباسًا بما يدل على معنى المصاحبة ، وهو «مع» ، لذلك آثرت الحديث عن هذا التناوب بمزيد من الإطالة ، وأنا أعلم أنَّه ليس من تناوب الحروف؛ لأنَّ «مع» اسم وليست حرفًا ، لكنَّ النُّحاة والمفسرين كثيرًا ما يعدُّونه من نيابة حروف الخفض بعضها عن بعض. قال ابن يعيش في هذا الموضع: «فأمَّا قول من

جعلها بمعنى (مع) ، وبمعنى غيرها من الحروف ، فيحتج بقوله تعالى ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ ، ويحمل عليه قوله تعالى ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ . قالوا لأنَّه لا يقال: نصرت إلى فلان بمعنى: نصرته ، ولا: أكلت إلى فلان ، بمعنى: أكلته ، وإنما المعنى يعود إلى أن يكونَ بمعنى (مع) ، ولذلك دخلت المرافق في الغسل. والتحقيق في ذلك أنَّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدهما يصل إلى معموله بحرف والآخر يصل بآخر ، فإنَّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ، إيذانًا بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر» [1].

وأشار البطليوسي إلى التداخل بين «مع» وحرف الانتهاء ، فقال: «(إلى) و(مع) تتداخلان في معنييهما ، فيوجد في كل واحدة منهما معنى صاحبتها؛ لأنَّ الشيء إذا كان مع الشيء ، فهو مضاف إليه ، وإذا كان مضافًا إليه فهو معه ، ألا ترى أنَّه إذا قال: (فلان ظريف عاقل إلى حسب) ، فمعناه أنَّ له ظُرفًا وعقلاً مضافين إلى حسب ثاقب» [2].

وحين نتأمَّل النصوص التي قيل فيها إنَّ «إلى» بمعنى كلمة المصاحبة نجد فارقًا بين ما يؤديه حرف الانتهاء ، وما تدل عليه «مع»، بل ربما أتَت «مع» في مكان «إلى» معنى يخالف ما يهدف إليه النظم.

ونبدأ ببيت لسلمة بن الخرشب قال فيه التبريزي إن «إلى» بمعنى «مع». قال سلمة:

---

(١) شرح المفصل ٨/ ١٥.
(٢) الاقتضاب ٢/ ٢٨٦.

يَسُدُّونَ أَبْوَابَ القِبَابِ بِضُمَّرٍ إِلَى عُنَنٍ [1] مُسْتَوْثِقَاتِ الأَوَاصِرِ

قال التبريزي: «يعني أنَّهم أصحاب خيل يحبسونها بأفنيتهم وفي بيوتهم ، ولا يتركونها ترود ، إذ كانت مُعدَّة للغزو بها ، والاستعانة عند الدعاء لها ، فهم فرسان همُّهم مقصورٌ على رباط الخيل وتضميرها لوقت الحاجة إليها ، و(إلى) بمعنى (مع)» [2].

الشاعر يريد الدلالة على كثرة الخيل التي ضاقت بها الحظائر ، فاضطروا إلى إسكانها معهم في أفنية بيوتهم حتى سدَّت أبواب القباب ، وشغلت المساحة الممتدة من هذه القباب إلى الحظائر والأفنية ، ولم تترك موضعًا شاغرًا من بداية ما يملكون من البيوت إلى نهاية حظائر الخيل. والقول بأنَّ «إلى» بمعنى «مع» لا يؤدي ما يؤديه حرف الانتهاء من استيعاب الإبل لكل جزء من الأرض فيما بين بيوتهم وحظائر الخيل ، مبالغةً في كثرتها ، وهو ما يهدف إليه.

ونجيء إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(آل عمران: ٥٢).

ونحاول أنْ نستبدل «مع» بـ«إلى» ، لنجد أنَّ الجواب لا يطابق السؤال ، إلا بنية مضاف محذوف ، على أنْ يكون التقدير: «نحن أنصار رسول الله»؛ لأنَّه طلب حينئذ من ينصره مع نصر الله ، ومقتضاه في الجواب أنْ يقولوا: «نحن أنصارك مع الله» ، لا أنْ يقولوا

---

(١) العُنَن: حظائر من شجر تُجعل فيها الخيل.
(٢) شرح المفضليات ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، وهو تكلُّف لا داعي إليه ، مع ما يؤدي إليه من إخراج «إلى» عن أصل معناها ، وما يترتب عليه من فوات وجه أبلغ يؤدَّى بحرف الانتهاء ، كما أشار إليه المرادي ، مُضعِّفًا القول بأداء «إلى» معنى «مع» ، فقال: «و(إلى) في هذا أبلغ من (مع)؛ لأنَّك لو قلت: من ينصرني مع فلان؟ لم يدل على أنَّ فلانًا وحده ينصرك ، ولابد، بخلاف (إلى) ، فإنَّ نصرة ما دخلت عليه محققة مجزوم بها»[1].

وخير ما قيل في تفسير هذه الآية ، استلهامًا لمعنى الحرف ، ما قاله الزمخشريُّ ، وما نقله الألوسي عن صاحب الكشف ، وهما توجيهان يضربان بسهم واحد ، ويستهدفان غرض النظم من إيثار حرف الانتهاء.

قال الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللَّهِ ﴾؟ قلتُ: يجب أنْ يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، والذي يطابقه أنْ يكون المعنى: مَنْ جندي متوجهًا إلى نصرة الله ، وإضافة ﴿ أَنصَارِيٓ ﴾ خلاف إضافة ﴿ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، فإنَّ معنى ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾: نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ ﴾: من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله ، ولا يصحُّ أنْ يكون معناه: من ينصرني مع الله؛ لأنَّه لا يطابق الجواب ، والدليل عليه قراءة من قرأ: من أنصار الله» [2] .

ونقل الألوسي عن صاحب الكشف: «لعل الأشبه في معنى الآية –

---

(١) الجنى الداني ٣٨٦.
(٢) الكشاف ٤/ ١٠١.

والله تعالى أعلم – أنْ يحمل على معنى: من ينصرني مُنهيًا نصره إلى الله تعالى؟ كما يقتضيه حرف الانتهاء دون تضمين ، كأنَّه – عليه السلام – طلب منهم أنْ ينصروه لله تعالى ، لا لغرض آخر ، مدمجًا نصرة الله تعالى في نصرة رسوله ، وجوابهم المحكي عنهم بقوله سبحانه: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ ، شديد الطباق له ، كأنَّهم قالوا: نحن ناصروك؛ لأنَّه نَصْر الله تعالي ، للغرض الذي رمز إليه ، ولو قالوا: نحن أنصارك ، لما وقع هذا الموقع» [1].

وقد نبَّه الزجاج فيما نقله الألوسي إلى خطأ القول بأنَّ حروف المعاني ينوب بعضها عن بعض: «لا يجوز أنْ يقال إنَّ بعض الحروف من حروف المعاني بمعنى الآخر ، لكنَّ الحرفين قد يتقاربان ، فيظن الضعيف العلم باللغة أنَّ معناهما واحد ، وليس كذلك» [2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى على لسان هود – عليه السلام – : ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾(هود: ٥٢).

فإنَّ الفرق بين ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ و«مع قوتكم» ، هو الفرق بين أنْ يكون الشيء معك ، وأنْ يكون جزءًا منك ، وذلك أنَّ قوله تعالى ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ معناه: يزدكم قوة تنتهي إلى قوتكم وتنضم إليها ، كما ينضم المَدَدُ من الجند إلى جيشه فيصبح جزءًا منه ، يتكاثر به الجيش ويقوى ، وفي ذلك ما يوحي بأنَّ قوتهم ذاتها ينميها الله تعالي،

---

(١) روح المعاني ٣/ ١٧٥.
(٢) السابق ٣/ ١٧٥.

ويبسط فيها طولاً وعرضًا ، حسبما يقتضيه فضله وكرمه ، وهذا ما ليس في كلمة المصاحبة.

أضف إلى ذلك هذا التزاوج البديع بين اتجاه الخلق بالتوبة إلى الله في قوله: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ واتجاه عون الخالق إليهم في قوله ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ ، فكانت هذه المشاكلة ضربًا من ضروب الحسن في نسق القرآن الكريم.

وعلى غراره قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾(التوبة: ١٢٤-١٢٥) ، فانظر كيف أدَّى حرف الانتهاء إلى تضاعف رجسهم بما انضم إليه من كفر بالآيات المُنزَّلة ، وتكاثر وازداد حتى انتهى بهم إلى الموت كافرين.

وتأمَّل قوله تعالى مخاطبًا الأوصياء على اليتامى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ ﴾(النساء: ٢) ، كيف يؤدي القول بدلالة «إلى» على المصاحبة إلى إفساد أغراض النظم.

فالله يأمر الأوصياء بإعطاء اليتامى أموالهم حين يأنسون منهم الرُّشد ، ولكي تعود إلى اليتامى حقوقُهم كاملةً نهى أنْ يأخذ الأوصياء منها ما يضيفونه إلى أموالهم مادامت لهم أموال يستغنون بها في معاشهم، والأكل هنا مجاز عن إضاعة أموال اليتامى ، وليس حقيقة الأكل منها ، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم ﴾ (البقرة: ١٨٨).

ولو كانت «مع» بدلاً من «إلى» لفُهِم منه أنَّه نهى عن إضاعة أموال اليتامى مع أموال الأوصياء ، ولا يشمل النهي عن أخذ مال اليتيم، وإضافته إلى مال الوصي ، بما يفيد أكل مال اليتيم فحسب ، وهو المقصود من النهي ابتداءً.

وبناءً على ذلك فإنَّ «إلى» هي التي تحقق الغرض من النهي عن الأخذ من أموال اليتامى والانتهاء بها إلى أموالهم ، وكأنَّ المعنى: لا تأكلوا أموالهم وتضيعوها بإضافتها إلى أموالكم ، وفي ذلك من التشنيع على الآكل وتفظيع جريمته ما فيه ، حيث تبرزه «إلى» في صورة مغتصبٍ لمال اليتيم المؤتمن عليه في وقت ليس هو فيه محتاجًا إلى ما اغتصبه ، بعد أنْ أغناه الله بماله عنه ، ثم هو شَرِهٌ يريده تكثير أمواله وزيادتها عن طريق ظلم الضعفاء ممَّن استودعوا أمانته ، لذلك لم يكتف بقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ حتى قال ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ زيادةً في النعي على آكل مال اليتيم من الأغنياء.

ولا أستريح لجعل «إلى» بمعنى المصاحبة ، على ما ذهب إليه الزمخشريُّ: «ولا تنفقوها معها ، وحقيقته: ولا تضمُّوها إليها في الإنفاق، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم ، قلة مبالاة بما لا يحل لكم، وتسوية بينه وبين الحلال» [1]؛ لأنَّ صورة الوصيِّ إذا كانت قبيحة حين ينفق مال اليتيم مع إنفاقه ماله ، فإنَّها أقبح وأفظع حين يستولي على مال اليتيم لينتهي به إلى ماله ، وهو ما قصده النظم الكريم ، فالمأكول الضائع هو مال اليتيم وحده. وما قاله الزمخشريُّ في «المفصَّل» لا يطابق ما قاله في «الكشاف». قال في «المفصَّل»: «وكونها بمعنى

---

(١) الكشاف ١/ ٤٩٥.

المصاحبة في نحو قوله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ راجع إلى معنى الانتهاء» [1].

إذ إنَّ الانتهاء يفضي إلى جمع أموال اليتامى وإضافتها إلى أموالهم لا إنفاقها معها.

وهذا الذي قلتُه يتفق مع أحد وجهين ذكرهما الزركشي. قال: «وقيل: ترجع إلى الانتهاء ، والمعنى في الأول: من يضيف نصرته إلى نصرة الله ، وموضعها حال ، أي: من أنصاري مضافًا إلى الله ، والمعنى في الأخرى: ولا تضيفوا أموالكم إلى أموالهم ، وكنى عنه بالأكل ، كما قال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾، أي: لا تأخذوا» [2].

وهو نفس ما ذهب إليه ابن يعيش: «لمَّا كان معنى الأكل ها هنا الضم والجمع ، لا حقيقة المضغ والبلع ، عدَّاه بـــ(إلى) ، إذ المعنى: لا تجمعوا أموالهم إلى أموالكم» [3] ، وهو ما حققه الرَّضيُّ كذلك: «والتحقيق أنَّها بمعنى الانتهاء ، أي: تضيفونها إلى أموالكم» [4].

***

إلى وحرف الإلصاق

ممَّا استشهد به القائلون بنيابة حروف الخفض بعضها عن بعض لتداخل حرف الانتهاء بحرف الإلصاق ، ونيابة الأول عن الثاني ، قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ

---

(١) المفصل ٢٨٣.
(٢) البرهان ٤/ ٢٣٣.
(٣) شرح المفصل ٨/ ١٥.
(٤) شرح الكافية ٢/ ٣٠١.

شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (البقرة: ١٤).

قال الأخفش: «وأمَّا قوله ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾، فإنك تقول: خلوت إلى فلان في حاجة ، كما تقول خلوت بفلان» (١).

ومفهوم ذلك أنَّ كلا التعبيرين يدلان على معنى واحد ، وهو الانفراد به ، لكنَّ الراغب فرَّق بين التعديتين بما يحقق معنى الحرف المُعدَّى به. قال: «وخلا فلان بفلان: صار معه في خلاء ، وخلا إليه: انتهى إليه في خلوة» (٢).

وانطلاقًا من قول الراغب ، فإنَّ تعدِّي الفعل بالباء اكتسب من معنى المصاحبة فيها دلالته على الانفراد به ، و«إلى» خلعت من معناها عليه ما دلَّ على قصده والانتهاء إليه ، وكشفت في الآية عن دخائل نفوس المنافقين وغايتهم ، وانصراف قصدهم إلى لقاء إخوانهم من الشياطين ، بما يدل على أنَّهم خرجوا من أجله ، وهو وجهتهم الحقيقية. يدلك على ذلك تعبير القرآن في جانب المؤمنين ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فهو لقاء لم يقصد إليه ، وإنَّما هو لقاءٌ فرضته الطريق ، ودفعت إليه المصادفة ، وتعبيرهم في جانب إخوانهم ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾ تدل فيه «إلى» على أنَّه هدفهم الذي توجَّهوا إليه. وذلك يتناغم مع رغبتهم الكامنة في نفوسهم ، والتي دلَّ عليها تعبيرهم بالجملة الاسمية ، وتأكيدها بـ«إنَّ» في قوله «إنا معكم» ، في حين فضحهم تعبيرهم في دعواهم الإيمان فجاءوا بالجملة الفعلية خلْوًا من التأكيد ، ممَّا

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٦.
(٢) المفردات ٢٢٦.

يدلُّ على أنَّ نفوسهم لم تطاوعهم كما طاوعتهم في خطابهم لإخوانهم.

ولو جاء التعبير: «خلوا بشياطينهم» ، لما أفاد غير الانفراد بهم ، ولضاع غرض النظم من الكشف عن توجههم النفسي ، ووحدة الغاية التي تربطهم بحلفائهم.

قال الطبري: «وأمَّا بعض نحويي الكوفة فإنَّه كانَ يتأوَّل أنَّ ذلك بمعنى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا صرفوا خلاءهم إلى شياطينهم) ، فيزعم أن الجالب لـ(إلى) المعنى الذي دلَّ عليه الكلام ، من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالية بهم ، لا قوله (خلوا) ، وعلى هذا التأويل: لا يصلح في موضع (إلى) غيرها لتغيُّر الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها. وهذا القول عندي أولى بالصواب؛ لأنَّ لكل حرف من حروف المعاني وجهًا هو أولى به من غيره» [1].

ومن الشواهد التي ذُكرت للدلالة على أنَّ «إلى» تأتي بمعنى الباء قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾(البقرة: ١٨٧).

والنُّحاة والمفسرون أمام تعدِّي الرفث بـ«إلى» فريقان؛ فريق يُضمِّن الرفث معنى الإفضاء ، وقد تصدَّينا له من قبل بما لا نحتاج إلى إعادته هنا.

وفريق يذهب إلى القول بنيابة «إلى» عن الباء [2] ، وهو ما نرفضه ، كما رفضنا القول بتضمين الفعل ، ذاهبين إلى أنَّ حرف الانتهاء على أصل معناه ، وأنَّ له غرضًا يقصد إليه النظم لا تؤدِّيه الباء

---

(١) تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١/ ١٣٠ – ١٣١.
(٢) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٤٠.

في موضعه؛ لأنَّها بما فيها من معنى المصاحبة والقرب إنَّما تأتي حين يراد الحثُّ على الاقتراب من المرأة والدعوة إلى الاستمتاع بما أحلَّه الله له ، وإحسان صحبتها ، وهذا لا موضع له في سياق يستهجن من المسلمين ما وقع منهم اختياناً لأنفسهم في شهر هو موسم العبادة ، صومًا وصلاةً ، وذكرًا وتلاوةً ، قبل أنْ يُحلَّ الله لهم ما أحلَّه من إباحة الاجتماع بنسائهم ليلة الصيام إلى طلوع الفجر ، وهو السِّرُّ الذي من أجله عُبِّر بـ«الرفث» بدلاً من «الإفضاء» ، مع ما فيه من دلالة على الفحش كما ذكر الزمخشريُّ [1] إلى ما وصفهم به من اختيان أنفسهم.

أقول: سياق كهذا لا ينسجم معه حرف الإلصاق ، بما يشيعه من مصاحبة النساء والالتصاق بهن ، إنَّما يلائمه حرف الانتهاء الذي يقف عند حد الإباحة ، وقضاء حاجة الرجل من المرأة حينما تدعوه الحاجة إليها ، حتى لا يفوته فضل الإكثار من العبادة والذكر ، وجعل «إلى» بمعنى الباء مُفوِّت لهذا الغرض.

وقد أشرنا إلى مثل هذا الفرق بين تعدية الإحسان بالباء وما يدل عليه من أنَّه إحسان التصق بالمحسن إليه ، ودرج فيه ، والإحسان بـ«إلى» ، وهو ما يقف عند حد إيصال الإحسان وإنهائه إلى صاحبه ، ممَّا لا يخرج عمَّا في هذه الآية.

***

(١) انظر الكشاف ١/ ٣٣٨.

إلى وحرف الوعاء

ذكر المالقي أنَّ (إلى) «تكون بمعنًى (في) ، وذلك موقوف على السماع لقلَّته ، كقولك: جلست إلى القوم ، أي فيهم ، ومنه قول الشاعر:

فَلا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِـــيدِ كَأَنَّنِي إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ

وقول الآخر:

وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تُلاقِنِي إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمُصَمَّدِ

أي: في الناس ، وفي ذروة» (١).

وذكر السيوطي من معاني «إلى»: «الظرفية كـ(في) ، نحو ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: فيه ، ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ، أي: في أنْ» (٢).

وإذا تأمَّلنا بيت النابغة «فَلا تَتْرُكَنِّي بِالوَعِيدِ...» نجده يُصوِّر إدبار الناس عنه ، وكراهيتهم للقائه ، بسبب هذا الوعيد الذي أخاف الناس منه، ففروا من لقائه فرارهم من المجذوم والأجرب ، وهو ما تُجسِّده «إلى» خير تجسيد ، حيث لم يتركوا له فرصة ليحتمي بهم ، ويدخل في جمعهم ، فما إنْ ينتهي إليهم حتى ينكشفوا عنه ويبتعدوا منه ، ولو جاءت «في» لأفسدت هذا الغرض.

وبيت «طرفة» الذي ذكره المالقي دلَّت فيه «إلى» على أنَّه انتهى إلى ذروة المجد ، ووصل الغاية منها بما لم ينته إليه أحد ويبلغه سواه ، فهي كذلك على أصلها.

---

(١) رصف المباني ١٦٩.
(٢) الإتقان ١/ ١٥٣.

وقوله تعالى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾سبق الحديث عنه في فصل اللام.

أمَّا قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾(النازعات: ١٧- ١٩) ، فإنَّ «إلى» في قوله ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ تنازعتها ثلاثة آراء ، أحدها ما نقلناه عن السيوطي ، والثاني أنَّ ﴿هَل لَّكَ ﴾ بمعنى: أدعوك. قال صاحب اللسان: «وأنت إنَّما تقول: هل لك في كذا ، لكنه لما كان هذا دعاءً منه – صلى الله عليه وسلم – له صار تقديره: أدعوك وأرشدك إلى أنْ تزكَّى» [1]. والثالث: تقدير مبتدأ محذوف يتعدَّى بـ«إلى». قال أبوحيان: «وتقول العرب: هل لك في كذا ، أو هل لك إلى كذا؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به (إلى) ، أي: هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا؟ قال الشاعر:

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَـــــا إِلَيَّ فَإِنَّنِي
بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِيَّ حِذْيَمَا» [2].

وعبارة الزمخشريِّ في تفسيره غير صريحة في الدلالة على تقدير «يرغب» ، أو أنَّ «لك» معناه «يرغب». قال: «هل لك في كذا ، وهل لك إلى كذا؟ كما تقول: هل ترغب فيه ، وهل ترغب إليه» [3].

وأراني منعطفًا نحو ما قاله أبوحيان من تقدير محذوف هو «رغبة» ، وأنَّ النظم الكريم حذفه تلطفًا في الدعوة ، واستمالة للمدعو بما لا يستثير صلفه وكبرياءه ، وإظهاره بمظهر الراغب المتمنِّع.

---

(١) لسان العرب ١/ ١٢٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢١.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٣.

ويبقى بعد ذلك ما لم يتعرض له أحدٌ ممَّن قال بتقدير محذوف هو «رغبة أن ترغب» ، وهو سرُّ إيثار القرآن لحرف الانتهاء ، مع أنَّ «يرغب» يتعدَّى – كما قالوا – بـ«في» و«إلى» ، وأنَّ العرب تقول: هل لك في كذا ، وهل لك إلى كذا؟ فهل هما سواء؟

وما أميل إليه انطلاقًا من معنى «إلى» هو أنَّ الرغبة حين تُعدَّى بها تدل على توجُّه الراغب إلى المرغوب ، والسعي إليه ، وترك ما هو فيه ، متجهًا إليه ، قاصدًا نحوه ، غير مُعرِّج على سواه ، وهو ما يقصد إليه النظم هنا دالاً على طلب موسى من فرعون ترك دنيا الكفر ، والاتجاه إلى الله ، كما يدلُّ عليه قوله بعد ذلك ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وهو ما دلَّت فيه «إلى» على رغبة موسى في إيصاله إلى ربه دون أن يقول: وأهديك لربك ، غير مكتف بأنْ يدله عليه حتى يصل به إليه ، وهذا المعنى نجده في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (الشرح: ٧-٨) ، كما فسره أبوحيان بقوله: «أي: اصرف وجه الرغبات إليه ، لا إلى سواه» (١).

ولاشك أنَّ المعنى يفسد لو قلت: «وفي ربك فارغب»؛ لأنَّه – عليه السلام – لم تفارقه رغبته في الله أبدًا ، ولكنَّ الله طلب إليه إذا فرغ من شئون الدنيا أنْ يتفرَّغ لعبادته تعالى ، ويصرف قلبه وفكره إليه وحده.

ولهذا الغرض الذي يلمح إليه حرف الانتهاء جاء الفعل «يؤذن» مُعدَّى بـ«إلى» في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٢١.

طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾(الأحزاب: ٥٣).

فالشأن في هذا الفعل ، إذا كان بمعنى الإباحة ، أنْ يُعدَّى بحرف الوعاء ، ولا يُعدَّى بـــ«إلى» إلا إذا كان بمعنى الاستماع. قال في القاموس المحيط: «وأَذِنَ له في الشيءِ ، كسَمِعَ ، إذْنًا ، بالكسر ، وأُذينًا: أباحَهُ له. واستَأْذَنَهُ: طَلَبَ منه الإذْنَ. وأَذِنَ إليه، وله ، كفرِحَ: استَمَعَ»[1].

فما بالُه عُدِّي بـــ«إلى» في هذه الآية؟ يقول العز بن عبدالسلام: «قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ مُضمَّنٌ معنى: إلا أن تُدعوا إلى طعام غير ناظرين إناه» [2].

والذي أراه – والله أعلم – أنَّ العدول عن حرف الظرفية إلى حرف الانتهاء قُصِد به توجيه أنظار المسلمين حين يُدعون إلى مائدة الرسول – عليه السلام – أنْ ينصرفوا إلى ما دُعوا إليه ، لا يلوون على شيء ، ولا يتّجهون بأبصارهم إلى غيره ، تأدبًا بآداب الإسلام ، يؤيد ذلك سياق الآية وأسباب نزولها [3] ، من كراهية الرسول لأفعال بعض أصحابه الذين أثقلوا عليه ، ولم يراعوا أوقات راحته ، وما توجبه آداب الضيافة من احترام مشاعر المضيف وعدم مضايقته ، وهو الذي أفصح عنه القرآن بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ ،

---

(١) القاموس المحيط (ترتيب القاموس) ١/ ١٢٧.
(٢) الإشارة إلى الإيجاز ٥٧.
(٣) انظر الوجيز في تفسير القرآن العزيز ٢/ ١٨٧، والتفسير المنير لمعالم التنزيل ٢/ ١٨٧ – ١٨٨، وأسباب النزول ٢٤٣.

ونزل على أثره أمر الله بفرض الحجاب على نسائه – عليه السلام – ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ، وليس في تعدية الفعل بحرف الوعاء هذا المعنى الذي ألمحت إليه «إلى».

وفي قوله تعالى ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب:٦). قال العز بن عبدالسلام: «قوله ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ ضُمِّن (تفعلوا) معنى (تسدوا) أو (توصلوا) ، لإفادة المعنيين»[1].

وقال أبوحيان: «وعُدِّي بـ(إلى)؛ لأنَّ المعنى: إلا أن توصلوا إلى أوليائكم»[2]. والمتتبِّع لمادة «فعل» في القرآن الكريم يجدها قد تعدَّت بالباء كثيرًا ، دالةً على إلحاق مكروه بمن تعدَّت إليه ، وأدَّت الباء دورها في الإيحاء بشدَّة الفعل ووطأته على مَنْ نزل به ، كقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾(إبراهيم: ٤٥) ، وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(الفجر: ٥) ، وذلك لما أنَّ الفاعل هو الله ، وإلصاق الله الفعل بهم دليل شدة العذاب وقسوته.

وتعدَّت بـ«في» ، كما في قوله على لسان قوم شعيب:

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ٥٧.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢١٣.

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ (هود: ٨٧) ، وحرف الوعاء هنا ينكر على شعيب أنْ يمنعهم من التصرُّف في أموالهم بما يدلُّ على تمكُّنهم منها ، وحريتهم في المنح والمنع ، كما يقتضيه حق المالك ، وليس غير «في» بدلالته على التمكُّن يصلح في موقعه.

أمَّا تعدِّيه بـ«إلى» في آية «الأحزاب» ، فذلك يوحي بأنَّ إيصال المعروف إلى الأولياء هو من باب الاستثناء ، وليس متمكناً تمكُّن حقوق أولي الأرحام فيما ورَّثهم الله بشرعه ، فحقهم أمكن وألزم ، وذلك يتناسق مع سياق يبطل الله تعالى فيه الميراث بالمؤاخاة في الإيمان (١) ، ويعود بالحقوق إلى أصحابها من ذوي الأرحام كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ، ولو جاءت «في» بدلاً من «إلى» لما تجاوبت أطراف النظم كما هي متجاوبة الآن.

ولـ«إلى» وحيُها ودلالتها الخاصة في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) ، حيث آثرها على حرف الوعاء ، ولم يقل: «في التهلكة» ، كما عدَّى نفس الفعل بها في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ (آل عمران: ١٥١) ، وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥١) ، وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق: ٢٤) ، وقوله على لسان قوم إبراهيم ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾

---

(١) انظر الوجيز للواحدي ٢/ ١٧٨، ومحاسن التأويل ١٣/ ٢٢٩.

(الصافات:٩٧).

ذلك أنَّ الغرض في آية البقرة هوَ تحذير البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، من أنَّهم صائرون إلى التهلكة ، وسائرون في طريق ينتهي بهم نهاية مؤلمة ، تكون أموالهم سبيلاً إلى شقائهم ، و«إلى» هي التي دلَّت على اتجاههم إلى هذا الطريق، وقرب وصولهم إلى نهايتهم ، وليس لحرف الظرفية هنا مكان؛ لأنَّه لو جاء لدلَّ على أنَّهم تمكنوا فيها وأحاطهم الهلاك واشتملهم ، وهو ما لا يتلاءم مع التحذير المبكر قبل الوقوع في المحظور. ولا داعي لتضمين «الإلقاء» معنى «الإفضاء» ، كما ذهب إليه الألوسي [1]؛ لأنَّ فعل الإلقاء ممَّا يتعدَّى بـــ«إلى» كما في قوله تعالى ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾(النمل: ٢٨) ، ودلت «إلى» على إنهاء الرسالة إلى قوم بلقيس وإيصالها إليهم. وقد أكد الراغب أنه «يقال: ألقيت إليك قولاً وسلامًا وكلامًا ومودةً. قال تعالى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ وقال: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ ﴾[2].

أمَّا تعدية فعل الإلقاء بحرف الوعاء ، كما في قوله ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾، وقوله ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ ، وقوله ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، فإنَّه يكشف عن شدَّة الرعب ، وتمكُّنه من قلوب الكافرين، وعمق أثره في نفوسهم ، كما يكشف عن شدَّة الإلقاء ، والمبالغة في إيصاله إلى عمق ما ألقي فيه من النار ، ويجسِّد حرص قوم إبراهيم

---

(١) انظر روح المعاني ٢/ ٧٨.
(٢) المفردات ٦٨٥.

على أنْ يلقوا به في وسطها وأتونها حتى لا يتسلل منها.

***

إلى ومعنى الاستعلاء

ذكر البعض أنَّ «إلى» بمعنى «على» في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ (البقرة: ٢٩) ، على أنَّ «استوى» بمعنى «استولى» ، ولعل ذلك كان فرارًا ممَّا يؤدي إليه إلقاء الفعل على أصل معناه من التجسيم والمشابهة – تعالى الله عن ذلك وتنزَّه – عند من لا يقول بالتجوُّز والتأويل في الصفات ، ذاهبين إلى أنَّ الاستواء هنا بمعناه في قول الشاعر:

فَلَمَّا عَلَوْنَا وَاسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمُ تَرَكْنَاهُمُ صَرْعَى لِنَسْرٍ وكَاسِرِ

وقد تصدَّى الألوسي لهذا الرأي وضعَّفه؛ لأنَّه خروجٌ بالحرف عن معناه الأصلي دون مُقتضٍ ، ولأنَّ الاستيلاء على الشيء يقتضي سبق وجوده ، والسماء لم توجد بعد ، بدليل عطف ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ عليه بالفاء[1].

ومثل هذا القول لا يفرق بين تعدية فعل الاستواء بـ«إلى» وتعديته بـ«على» ، إذ إنَّ «إلى» تكسبه معنى القصد إلى الشيء ، والاستواء في الفعل يدل على الاستقامة في الاتجاه إليه ، ممَّا يدل على أنَّه لم ينشغل بغيره ، أو يعمد إلى ما يعطله عمَّا قصد إليه ، لذلك قال الزمخشريُّ: «استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجُّهًا لا يلوي على

---

(١) انظر روح المعاني ١/ ٢١٥.

شيء ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج» [1].

وحين يُعدَّى بـــ«على» يكتسب من الاستعلاء فيها معنى الاستيلاء على الشيء ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (طه:٥).

على أنَّ استواء الله إلى السماوات ليس استواء الذات ، وإنَّما استواء التدبير ، وهو ما أفاده الراغب في قوله: «ومتَىٰ عُدِّي بـــ(إلى) اقتضى معنى الانتهاء إليه ، إمَّا بالذات وإمَّا بالتدبير ، وعلى الثاني قوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾» [2].

وجعل صاحب التحرير والتنوير دلالة الاستواء على القصد إلى الشيء من التجوُّز في الفعل ، وحرف الانتهاء قرينة التجوُّز. قال: «واستوى الشيء مطاوع سواه ، ويطلق مجازًا على القصد إلى الشيء بعزم وسرعة ، كأنَّه يسير إليه مستويًا لا يلوي على شيء ، فيُعدَّى بـــ(إلى) فتكون (إلى) قرينة المجاز ، وهو تمثيل» [3].

وهذه الدلالة نفسها هي التي أشار إليها الزمخشريُّ مع حرف الانتهاء ، لكنه لم يقل إنَّها على سبيل التجوُّز ، بل هو ممَّا اكتسبه الفعل من تعدِّيه بـــ«إلى».

وممَّا قيل فيه بدلالة «إلى» على معنى الاستعلاء قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾(الإسراء: ٤).

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٥.
(٢) المفردات ٣٦٦.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٣٧١.

نقل الألوسي عن ابن عباس وغيره أنَّ المعنى: قضينا عليهم ، و«إلى» بمعنى «على» [1].

وحين نعود إلى معاجم اللغة نجد أنَّ مادة القضاء – وإنْ دارت حول الحكم والفصل – فإنَّ فعلها تتنوع دلالاته بما يضفيه عليه السياق ، وما يكتسبه من معاني الحروف التي يتعدَّى بها. فقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ معناه: أحكم خلقهن ، وقوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناه: أمر ربك أمرًا قاطعًا ، وقضى عليه عهدًا: أنفذه ، وكأنَّه أحكم هذا العهد. أما قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فمعناه: أنهي إليهم ما حكمنا به وقدَّرناه ، ومثله ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ (الحجر: ٦٦) ، في خطاب الله للوط – عليه السلام – ولا يعقل أنْ يكون ذلك قضاءً عليه ، وهو القضاء الذي أهلك به قومه وأنجاه وأهله. وهذا ما صرَّح به صاحب اللسان في قوله: «{وقضينا إليه ذلك الأمر} ، أي: أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك» [2].

أمَّا لماذا عدل عن حرف الاستعلاء في آية «الإسراء» إلى حرف الانتهاء ، وهو قضاء عليهم ، وحكم نافذ فيهم ، فأحسب – والله أعلم – أنَّ العدول عنه تجسيد لعدل الله تعالى في أنَّ ما قضاه وقدَّره لا يُفقد الإنسان اختياره في الاتجاه نحو الخير والعمل الصالح ، فهو أشبه بإنذار وُجِّه إليهم ، والدليل على ذلك قوله قبل الإفساد في المرة الثانية ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ ، ولو جاء بـ«على» لقيل إنَّهم محكوم عليهم ، مغلوبون بقضاء الله ، لا إرادة لهم ، ولا اختيار ،

---

(١) انظر روح المعاني ١٥/ ١٦.
(٢) لسان العرب ٦/ ٣٦٦٥.

والله قضى بأنْ لا يكون للناس عليه حجة.

وما قيل من تضمين «قضى» معنى «أوحى» لا ضرورة إليه؛ لأنَّ حرف الانتهاء أدَّى ما يؤدِّيه ، وهو مع القضاء هنا أبلغ في الإنذار والوعيد. قال الرازي: «﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾، أي: أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم ، ولفظ (إلى) صلة للإيحاء؛ لأنَّ معنى قضينا: أوحينا إليهم ذلك» [1]. وليس ذلك من الرازي وغيره إلا محاولةً لتصحيح التعدية مع ظهور معنى الحرف.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٥٥.